الخطبة الرابعة والأربعون

«وسلط عليكم الله ذلاً.. لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»

صحيح أبي داود (3462)

إِنَّ الْحَمْد للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النحل: 16/ 90 – 91].

كل الناس تتكلم عن (Punish a Muslim Day) والذي جعلوه في (3) أبريل (نيسان)، والذي بدأ في إنكلترا وانتشر في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا العداء للإسلام والمسلمين، هذا الكره للإسلام والمسلمين، وهذا الخوف من الإسلام والمسلمين، ما سببه؟ لماذا منعوا الحجاب في فرنسا؟ ولماذا يضيقون على المسلمين؟ لا بد أن نجيب عن هذه الأسئلة، لا بد من أن نواجه الواقع ونعرف المجتمع الذي نعيش فيه.

وأود أن أسأل سؤالاً مهمـًا: هل في ديننا خطأ؟ هل في ديننا عيب؟ هل في ديننا ما هو مشين؟ وهل في ديننا خرافات وضلالات وأباطيل؟ هل في ديننا ظلم لأحد أو عدوانية لأحد؟ إذا كانت الإجابات كلها بالنفي، إذاً لماذا يكرهوننا ويحاربوننا ويضيقون علينا؟ لا بد من البحث ولا بد من الإجابة، وأقول وبالله العون: إن السبب ليس ديننا،

وليست شريعة ربنا، فلقد بدأت حديثي بآية قرآنية تدعو إلى جميع الفضائل وتنبذ جميع الرذائل، ولمّا حاول المشركون في السابق بأن يشوهوا سمعة ديننا قام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ودافع عن دينه وعن عقيدته وعن رسوله ﷺ.

قال سيدنا جعفر: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة.

وقرأ عليه من سورة مريم، فبكى النجاشي وقال: إن هذا الذي جاء به نبيكم والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، فرد النجاشي الهدايا التي جاء بها عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وقال: لا أسلمهم أبداً.

أقول: إن ديننا بريء من أي سوء أو شائبة، وإن ديننا قد رضيه رب العالمين لنا وهو الذي قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 5/ 3]، أكمل لنا الدين، وأتم علينا نعمته بهذا الدين ورضيه لنا، إذاً القضية ليست في الإسلام، وإنما القضية في المسلمين، فما هي مشكلتنا إذاً؟ أولاً - أننا لا نطبق ديننا، فهل نحن نَصْدُقْ بالحديث، ونَصْدُقْ بالمعاملة، ونفي بالعهود، كما قال جعفر رضي الله عنه؟ أداء الأمانة، وحسن الجوار، وننتهي عن الفواحش وما إلى ذلك... لمّا ذهب المسلمون وتاجروا في بلاد الهند وبلاد الصين، وبلاد شرق آسيا أسلمت تلك الشعوب بالمعاملة الحسنة وبالأخلاق الحميدة التي عاشوا بها وتعاملوا بها في تلك البلاد، فأحبهم أهل تلك البلاد وأسلموا، وهم اليوم أكبر عدد من المسلمين في الأرض.

ثانيًا – أننا لم ندعُ إلى ديننا وتعاليمه ولم ننشره، وهذا سببه عدة عوامل منها: 1– بعدنا عن ديننا، 2– عدم دراسة عظمة ديننا، 3– عدم تطبيقنا لمبادئ ديننا، 4– ويمكن أننا لا نفتخر بديننا والعياذ بالله، 5– أو أننا نخاف أن يصفونا بالرجعية أو أي اتهام ما، 6– أو أن الدنيا صارت أكبر همنا ومبلغ علمنا والعياذ بالله.

قال ﷺ من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط عليكم الله ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» حم (4987)، صحيح أبي داود (3462).

(العِينَة): التحايل لأكل الربا، (وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع) أي: رضيتم بالدنيا وجريتم وراءها، (وتركتم الجهاد في سبيل الله): وهو الدعوة إلى دين الله بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم وكل ما تملكونه من وسائل، فكانت العاقبة الذل والمهانة وكان هذا اليوم والعياذ بالله (Punish a Muslim Day) وسيبقى هذا الذل حتى نرجع إلى ديننا.

لو نُعلّم أولادنا عظمة ديننا، لو نعلم أولادنا أخلاق ديننا، لو نطبق ما أمرنا به الله ورسوله أمام أولادنا، لكان وضعنا مختلف. القضية لا تستلزم إعلانات ودعايات حتى نُري الناس ونُعرّف الناس عنا، مثال رائع أضربه وهو أننا في الحج من بين هذه الملايين الموجودة، نرى فئة من الناس، منظمة، منضبطة، نظيفة، لطيفة، كل الناس يعرفونهم من سيماهم ومن تصرفاتهم؛ إنها حملة الحجاج من ماليزيا، لباس موحد، تنظيم رائع، تهذيب رائع، كل الناس يحترمونهم ويعاملونهم المعاملة الحسنة، أخلاقك، تعاملك، تهذيبك يفرض على الناس الاحترام والمحبة.

أسلم بعض الناس في المدينة عندما دخل رسول الله ﷺ، فلما سُئلوا عن سبب إسلامهم قالوا: إنه دعا –أي: رسول الله ﷺ– إلى إفشاء السلام، وإطعام الطعام، ولين الكلام.

وقد قيل في الأمثال العربية: جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، لو علّمنا

أولادنا وطبقنا أمام أولادنا ما قال عليه الصلاة والسلام من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «الإيمان بضع وسبعون شعبة: أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» البخاري ومسلم.

فهل عرّفنا أولادنا شعب الإيمان ودرسناها لهم وشرحناها لهم؟

- الشعبة هي الخصلة، والبضع هو عدد بين الثلاث والتسع.

التوحيد هو أساس الإيمان، ولا يصح شيء من الشُّعَبْ إلا بعد تحقيقه، والشُّعَبْ هذه يندرج تحتها أعمال القلب واللسان والبدن، وطبعاً التفكير والاعتقاد من أعمال العقل.

- التوحيد ويندرج تحته:

1- الإيمان بالله تعالى وفيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وتنزيهه وإفراده بخصائصه وأنه سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 42/ 11]، 2- الإيمان بملائكته، 3- وكتبه، 4- ورسله، 5- والقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى، 6- والإيمان باليوم الآخر، ويدخل تحت الإيمان باليوم الآخر: القبر والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، 7- محبة الله سبحانه وتعالى ومحبة رسوله ﷺ، 8- والبغض في الله تعالى، ويدخل ضمن هذا تعظيم شعائر الله وتعظيم رسوله ومحبته واتباعه والصلاة عليه، 9- الإخلاص لله تعالى في النيات والأقوال والأعمال، 10- ترك الرياء والنفاق، التوبة والاستغفار، 12- الخوف، 13- الرجاء، 14- الشكر والوفاء، 15- الصبر، 16- الرضا، 17- التوكل، 18- الرحمة للضعفاء والفقراء وذوي الحاجة، 19- التواضع والتذلل لله سبحانه وتعالى، 20- احترام الناس وتوقيرهم وخاصة الطاعنين في السن والعلماء وأهل المعروف، والرحمة للأطفال والحنو والشفقة عليهم ومداراتهم، 21- ويجب ترك ونبذ الكِبر والعُجب والتفاخر والتظاهر، 22- ترك الحسد، 23- ترك الحقد، 24- وترك الغضب، 25- وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين، المادية

والجسدية والمعنوية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 33/ 58].

- وأعمال اللسان: 26- التلفظ بالتوحيد، 27- تلاوة القرآن، 28- تعلم العلم وتعليمه، 29- الدعاء والذكر والاستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 30- اجتناب الفحش من القول، 31- اجتناب الغيبة والنميمة، 32- أذى الناس باللسان والتعيير والسباب والشتم، 33- اجتناب قول الزور والكذب والشهادة الخاطئة والحلف الكاذب.

- أعمال البدن وتشمل: 34- التطهر من الأوساخ في البدن والثياب والمكان، 35- اجتناب النجاسات، 36- ستر العورة، 37- الفروض الواجبة كالصلاة والزكاة والحج والعمرة، 38- البذل والسخاء، إطعام الطعام، إكرام الضيف، 39- الحفاظ على الدين ويدخل فيه الفرار بالدين والهجرة إلى دار الإسلام أو إلى دار أمان يُطبِّق فيها المسلم شعائره وعباداته، 40- الوفاء بالنذور وأداء الكفارات، 41- التعفف عن الفاحشة بالزواج، 42- والقيام بحقوق الزوجة والأولاد، 43- بر الوالدين، 44- صلة الرحم.

- ومع الناس ومعاملاتهم: 45- العدل في المعاملة والأقوال، 46- متابعة الجماعة، 47- طاعة القوانين وعدم المخالفة، 48- الإصلاح بين الناس، 49- المعاونة على البر والتقوى وما فيه مصلحة عامة، 50- إكرام الجوار وحسن المعاملة، 51- جمع المال من حلال وإنفاقه في حلال، 52- النهي عن الإسراف والتبذير، 53- النهي عن إضاعة الوقت والعمر فيما لا طائل فيه، قال ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه» الترمذي - ابن حبان، 54- رد السلام، 55- تشميت العاطس، 56- وكف الأذى، 57- اجتناب اللهو الفاحش، 58- إماطة الأذى عن طريق الناس.

قال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له» البخاري ومسلم، وقال ﷺ: «تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك» مسلم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله»، قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا» قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعًا أو تصنع لأخرق» قلت: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك» مسلم – كتاب الإيمان.

أبواب الخير كثيرة جداً، ويمكن للإنسان أن يقوم بها إذا وطّن نفسه على فعل الخيرات، وأقول: لو أننا التزمنا بتعاليم ديننا وطبقناها لأحبنا الناس ولاحترمونا ولم يكن هناك كره ولا خوف ولا اعتداء ولا ضغينة، ولو بذلنا الخير للناس لرأينا الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، كما فعل أجدادنا من قبل، فهذه سمرقند أسلمت عن بكرة أبيها بعد أن خرج جيش المسلمين منها بأمر القاضي (جميع بن حاضر)؛ لأن المسلمين دخلوها قبل أن يخيروا القوم، وقبل أن ينذروهم فأخرجهم القاضي وقال: ما فتحنا البلاد ولا دخل الناس في دين الله إلا بعدل الإسلام. ولما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لكسرى: «جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام»، وقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وما ابتغينا العزة بغيره إلا أذلنا الله.

فإذا أردنا أن نرفع الذل والهوان الذي نزل بنا فما لنا بد من الرجوع إلى ديننا كما علمنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي مر معنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم